﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: 82 - 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

راعَى النَّظمُ الكريمُ ترتيبًا لطيفًا في هاتين الآيتَين الكريمتَين، وذلك أنَّه لمّا ذكرَ ما تقدَّمَ من دلائلِ الإلهيَّةِ، وكمالِ القدرةِ والرَّحمةِ والحِكمةِ في خَلْقِ الأنعام، ومنافعها للإنسان؛ أرْدفَه بالتَّهديدِ والوعيد، مُبيِّنًا أنَّ عاقبةَ المتكبِّرينَ المتمرِّدين الَّذين باعوا الآخرة بالدُّنيا - فسخَّروا ما وهبَهمُ اللّهُ من النِّعَم لمحادَّةِ اللّهِ ورُسُلِه - ليست إلّا الهلاكَ والبَوارَ، مع أنَّهم كانوا أكثرَ عددًا ومالًا وجاهًا من هؤلاءِ المُتأخِّرين، فكيف يكونُ حالُ هؤلاءِ الفقراءِ المساكين؟[1].

لَمّا يَسكُرُ المُنعَّمونَ بالنِّعمِ، ويَنسَونَ المُنعِمَ؛ يحيق بهم ما حاق بمَن قبلَهم

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبَ يُعاقِبُ مُعاقبَةً وعُقوبةً وعِقابًا، وإنَّما سُمّيتْ عُقوبةً؛ لأنَّها تكونُ آخِرًا وثاني الذَّنْب، ذلك أنَّ أصلَ مادَّةِ (عقب) يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، على ما قالَهُ الخليل: كلُّ شيءٍ يعقُبُ شيئًا؛ فهو عقيبُه[2]، والعاقبةُ إطلاقُها يختصُّ بالثَّواب، نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وقولهم: ليس له عاقبة، أي: ليس له نسل، وكلُّ شيء جاء بعد شيء؛ فقد عاقبه، وعقَبَه تعقيبًا، وعاقبةُ كلِّ شيء آخرُه[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 535.
(2) الخليل، العين: (عقب).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (عقب).

2) ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾: شدَّ عَضُدَه: قوّاه، شدَّهُ، وأوْثَقَه، يَشُدُّهُ، ويَشِدُّهُ بالضمِّ والكسرِ شَدًّا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: 152]، أي: قوَّتَه، والشَّدُّ: العَقْدُ القويُّ، يقال: شدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيتُ عَقْدَهُ، قال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، والشِّدَّةُ تُستعمَلُ في العَقْد، وفي قوى النَّفس، وفي العذاب، وفي البَدَن، قال تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ [فاطر: 44][1]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾، أي: أكثرَ منهم عددًا، وأقْوَى منهم أجسادًا، وأوسعُ منهم أموالًا، وأظْهرُ منهم آثارًا في الأرض بالعمائر والمصانع والحرث[2].

3) ﴿وَءَاثَارًا﴾: أثَرَ يُؤثِرُ، وأثَّرَ يُؤَثِّرُ، والجمعُ: الآثار، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الرّوم: 50]، وأثَرُ الشَّيءِ: حصولُ ما يدلُّ على وجودِه، يقالُ للطَّريقِ المُسْتَدلِّ به على مَنْ تقدَّم: آثار، كما قال تعالى: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ [طه: 84]، ومنه يقال: سمنَتِ الإبلُ على أثارةٍ، أي: على أثَرٍ من شَحْم، وأثَرْتُ العِلْمَ: رَوَيتُه، آثُرُهُ أثْرًا وأثارَةً وأُثْرَةً، وأصلُه: تتبَّعتُ أثَرَه، قال تعالى: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ [الأحقاف: 4][3]، وآثار الأعمال: ما بقي منها، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23]، أي: سُنَنِهم في الدّين[4].

4) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: كَسَبَ واكْتسبَ بمعنى، والكَسْبُ: ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسبِ المال، وقد يُستعمَلُ فيما يَظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلَبَ به مضرَّةً، والكَسْبُ يقال فيما أخذَه لنَفْسِه ولغيرِه، والاكتسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفدتُه لنَفْسِك، فكلُّ اكتسابٍ كَسْب، وليس كلُّ كسبٍ اكْتسابًا، قال تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: 267]، وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، فقد خصَّ هنا الكَسْبَ بالصّالح، والاكْتسابَ بالسيِّئ، ويمكن أن يكونَ الاكتسابُ فيهما، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ [النّساء: 32][5].

5) ﴿وَحَاقَ﴾: حاقَ، وبابُه باعَ، وحاقَ به الشَّيءُ: أحاطَ به، ونزلَ، وأصاب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، وحاقَ بهمُ العذابُ: أحاطَ بهم، ونزل، وحاقَ

(1) الرّاغب، الأصفهانيّ، والفيروزابادي، القاموس: (شد).
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 659.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (أثر).
(4) الحميري، شمس العلوم: (الأثر).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (كسب).

بهِم الأمْرُ: لَزِمَهُم، ووَجَبَ عليهِم، ونَزَلَ، وبِه فُسِّرَ قَوْلُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وأحاقَ اللّهُ بهِم مَكْرَهُم: أحاطَ، قالَهُ اللَّيثُ، أو أنْزَلَه، قالَه ثَعْلَبٌ، وقالَ اللَّيْثُ: الحَيْقُ: ما يَشْتَمِلُ على الإنسانِ من مَكْروه فِعْلِه، من مَكْر، أو سوءِ عَمَلٍ يَعْمَله، فيَنْزِلُ بِهِ ذلِكَ[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: أحاطَ بهم جزاءُ استهزائهم[2].

6) ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: (هزأ): كلمةٌ واحدة، يُقال: هزِئَ واسْتهزَأ؛ إذا سخر[3]، والهُزْءُ: مَزْحٌ في خُفْية، وقد يقالُ لما هو كالمَزْح، فمِمّا قُصِدَ به المزحُ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58]، والاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإن كانَ قد يُعبَّرُ به عن تعاطي الهُزْء، كالاستجابةِ في كونِها ارتيادًا للإجابة، وإن كان قد يجري مجرَى الإجابة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التَّوبة: 65][4]، وقولُه تعالى: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يسخرونَ من رُسُلِهم باستعجالِ العذاب[5].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى عنِ الأُمَمِ المكذِّبةِ بالرُّسُلِ في قديم الدَّهر، وماذا حلَّ بهم من العذابِ الشَّديدِ، مع شدَّةِ قواهُم، وما أثَروه في الأرضِ، وجمعوه من الأموال، فما أغْنَى عنهم ذلك شيئًا، ولا ردَّ عنهم ذَرَّةً من بأسِ اللّه؛ وذلك لأنَّهم لَمّا جاءتهمُ الرُّسُلُ بالبيِّنات، والحُجَجِ القاطعات، لم يلتَفِتوا إليهم، ولا أقْبلوا عليهم، واستغنَوا بما عندهم من العِلْمِ في زعمِهم، عمّا جاءتْهم به الرُّسُل، فأحاطَ بهم ما كانوا يُكذِّبونَ، ويَستبعِدونَ وقوعَه من العذاب[6].

القـوَّةُ والعلـمُ بـغـيرِ إيـمـانٍ مَئِنَّةُ الطُغيانِ، وهـلاكِ النّـاسِ والأوطان

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 25/ 212.
(2) الرّاغب، المفردات: (حاق)، والرّازي، مختار الصّحاح: (حيق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (هزؤ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 423.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 79، 80.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآياتِ عن الآيةِ السّابقة:

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، الآيتان تفريعٌ مساوقٌ للتَّفريعِ الَّذي قبلَه، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، فهو انتقالٌ عَقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلالِ بنِعَمِ اللهِ على وحدانيَّته ﷻ، وفي هذا الانتقالِ تذكيرٌ وتهديدٌ ووعيد، وهو يُشيرُ إلى أنَّهم إن لم يكونوا ممَّن تَزَعُهُمُ النِّعمُ عن كُفْرانِ مُسْديها، كشأنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمة، فَلْيضعوا أنفُسَهم، حيث يختارونَ من إحدى الخُطَّتَيْن[1].

مَـنْ يستهزئ بآياتِ الاستدلالِ والامْـتـنـان؛ يُصِبْه الوعيدُ بالخُسران

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اسْتفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ تعجُّبيٌّ، وهو منصبٌّ على عدم النَّظر والاعتبار بما يرون من عواقب الأمم المستأصلة[2]، فالسَّيْرُ المستَفْهَمُ عنه بالإنكارِ على تركِه هو سَيْرٌ تحصُلُ فيه آياتٌ ودلائلُ على وجودِ اللهِ ووحدانيَّته، وهو تذكيرٌ وتهديدٌ ووعيدٌ لمن تمتَّعوا بنِعَمِ اللهِ ومنافعِها، وكفروا المُنعِمَ بها عليهم، وهو اللهُ ﷻ، فكانوا من أصحابِ النُّفوسِ اللَّئيمةِ، الَّتي آثَرتِ النُّكرانَ والكُفرانَ على الشُّكرانِ والإيمان[3].

الإنكارُ على مَنْ يرى آياتِ الله، ويُصِرُّ مُستكبِرًا كأن لم يرها

دلالة الفاءِ على الجملةِ المحذوفة:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ للتَّفريع؛ لوقوعِها بعدَ ما يصلُحُ لأن يُفرَّعَ عنه إنكارُ عدمِ النَّظرِ في عاقبةِ الَّذين من قبلِهم، بخلافِ نظيرِها الَّذي قبلَها؛ فقد وقعَ بعد إنذارِهم بيومِ الآزفة[4].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَسِيرُواْ﴾ و ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَسِيرُواْ﴾ و﴿فَيَنظُرُواْ﴾؛ لتجدُّدِ سيرِهم

تـجـدُّدُ سفرِ المشركين في بلادِ الأممِ السّالفةِ الكافرة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219.

واستمراره، فإنَّ هؤلاء المجادلينَ في آياتِ اللّهِ من مشركي قومِك يا محمَّدُ ﷺ هم في سفرٍ دائمٍ إلى الشّامِ واليمن، وهم ينظرون في عاقبةِ المكذِّبين قبلَهم، وهو دلالةٌ على ديمومةِ سيرِهم ونظرِهم، لكن دون جَدوى، أي: دون اعتبارٍ بما حلَّ بمَن قبلِهم من العذاب[1].

نُكْتَةُ تعديَةِ فعلِ السَّيْرِ بـ ﴿فِي﴾:

تعديةُ فعلِ السَّيرِ بـ ﴿فِي﴾، في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادةِ دخولِهم في بلادِ الأممِ السّالفةِ دخولًا تامًّا مُتحقِّقًا، وليس مجرَّدَ عبورٍ عارضٍ لا يتحقَّقُ منه الاعتبارُ لمن أرادَه، وتفكَّرَ في أسبابِ ما أصابَ أهلَ هذه البلادِ، من دمارِ بيوتِهم ومصانعِهم، واستئصالِ شَأْفتِهم[2].

تحقُّقُ دخولِ المشركينَ في بلادِ الأممِ البائدة

فائدةُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

استعمالُ النَّظمِ الكريمِ للظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على رؤيةِ ما خلَّفوه من عظيمِ آثارِ قوَّةِ أبدانِهم وممالكهم في المباني والأفعال، ممّا لا يقدرُ عليه كفّارُ قريشٍ والعربُ قاطبةً، فلم يُغْنِ عنهم كسبُهم ولا حالُهم ولا قوَّتُهم حين جاءهم عذابُ اللّهِ وأَخْذُه[3].

رؤيةُ المشركين لآثارِ الأممِ المكذِّبة في الأرض مُفضٍ إلى الإيمان

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعَهد، أي: الأرضِ في نواحيها وأطرافِها وداخلِها الَّتي عُرِفَتْ بأصحابها القاطنين فيها، فيما مضَى من الزَّمان، من قومِ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ ﷺ، وقد كان مشركو قريشٍ يعرفونها في أسفارِهم، في رحلتَي الشِّتاءِ والصَّيفِ إلى الشّامِ واليمن، كما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ [قريش: 1 - 2][4].

بيانُ تحديدِ الأرضِ المعهودة المعروفةِ لكفّارِ قريش

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 421، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 421، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 659.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 571.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 421، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 571.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة[1]، أي: السَّيرُ في أرضِ الأممِ الهالكةِ سببٌ لنظرِ العِظَةِ والاعْتبارِ، بما حلَّ بهم وبأرضهم من الدَّمار[2].

دلالة قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾:

جملةُ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به للفعلِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ المضمَّنِ معنَى العِلْمِ المعلَّقِ بالاستفهام[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في السّياق الرّائع الإحكام:

تحذيرُ المشركينَ من عاقبةِ المكذِّبين

قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ استفهامٌ تحذيريٌّ، أي: حتَّى يعتبروا بما يَرونَ من آثارِ عذابِهم، ودمارِ دورِهم، واستئصالِ شأفَتِهم؛ بسببِ مخالفتهم لأنبيائهم ورُسُلِهم، وحرصِهم على الدُّنيا ومَلذّاتِها، فينزجروا عنِ التَّكذيب، ويُصدِّقوا رسولَهم في دعوتِه إلى عقيدةِ التَّوحيد.

نُكْتَةُ تذكيرِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾:

كانَ عذابُ المكذِّبينَ أليمًا باعتبارِ عاقبةِ أمرهم الخاسرة

الفعلُ ﴿كَانَ﴾ في القرآنِ الكريمِ يفيدُ الاستمراريَّة، وهو هنا إشارةٌ إلى ما كان من عاقبةٍ لأولئك المكذِّبين الأقدمين، وقد جاء مُذكَّرًا؛ حملًا على معنَى ﴿عَٰقِبَةُ﴾، وهو العذاب، أي: العذابُ الَّذي أصابَ جميعَ الأممِ السّابقةِ المعاندةِ لأنبيائها ورُسُلِها على مرِّ الدُّهورِ وكرِّ العصور[4].

دلالة الاسمِ الموصولِ وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

(1) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.
(3) الخرّاط، المجتبَى: 3/ 1114.
(4) السامرائي، معاني النَّحو: 2/ 65.

مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لوصفِ حالِ الَّذين عاندوا أنبياءَ اللهِ ورُسُلَه، وكذَّبوا دعوتَهم في عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، في آخرِ أمرِهم، وهو العقابُ الَّذي نزلَ بساحتِهم واستأصلَهم[1]، وجملةُ صلةِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، لا محلَّ لها من الإعراب، أي: الَّذين من قبلِهم من الأُمَمِ المهلَكة[2].

وصفُ المعاندين فيما حلَّ بهم من عقابِ الله المهين

دلالة الحرف ﴿مِن﴾ في السّياق:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ تنبيهٌ على ما تيسَّر ممّا يستطيعون رؤيتَه من آثارِ الأقدمين المُكذِّبين؛ وذلك أنَّهم لا يَقدِرونَ على استغراقِ نظرِ جميعِ الأرضِ وآثارِ جميعِ أهلِها[3].

فائدةُ ذِكْرِ الظَّرفيَّةِ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾:

في ذكرِ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾، تنبيهٌ على قربِ الزَّمانِ والمكان، لو أنَّهم ما كانوا معتمدين في مغالبةِ الرَّسولِ ﷺ ومجادلتِه بالباطلِ في الآياتِ الظّاهرةِ على كثرتِهم وقوَّتِهم، وقلَّةِ أصحابِه مع ضعفِهم[4].

التَّنبيهُ على قُرْبِ الزَّمانِ والمكان؛ لإبرازِ ما يُتاح من البيان

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ مبادي أحوالِهم وعواقبِها[5]، وما كانوا عليه من الكثرةِ والقوَّةِ في مصانعِهم، واتِّخاذِهمُ من الجبالِ بيوتًا، ممّا تَشهد عليه آثارُهم الَّتي يراها المشركون، ويَرَون ما أصابهم لمّا استهزؤوا برسُلِ اللهِ وأنبيائه، وعاندوهم، وآذَوهم، وآذَوا المؤمنينَ بهم.

بيانُ ما كان عليه أسلافُهم من النِّعَمِ، ثمَّ ما حلَّ بهم من النِّقَم

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 343، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.

نُكْتَةُ دخولِ الفعلِ (كانَ):

تحقُّقُ نزولِ العذابِ بالمكذِّبين، أمرٌ محقَّق لا ريب فيه

دخولُ فعلِ الكَوْنِ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾؛ للدَّلالةِ على حدوثِ عاقبةِ المكذِّبين آخر أمرِهم - لا محالة - وهو العذابُ الَّذي ألمَّ بهم عن بِكْرَةِ أبيهم، فلم يُبقِ منهم أحدًا أبدًا[1].

الموقعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿أَكْثَرَ﴾ و ﴿وَأَشَدَّ﴾:

مقارنة الكثرة والشِّدَّة مفيدةٌ في الدَّلالة على المراد

كلمتا: ﴿أَكْثَرَ﴾ و﴿وَأَشَدَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾، الأوْلى: خبرٌ لـ ﴿كَانُوٓاْ﴾، والثّانية: معطوفةٌ على ﴿أَكْثَرَ﴾[2]، ومُفادُ ذلك أنَّهم "كانوا أكثرَ مِنهُم عددًا، وأشَدَّ قوَّةً في الأبدان والأموال، وأشدَّ آثارًا في الأرضِ، أي: تركوا آثارًا كثيرة بعدهم من الأبنية والقبور والمصانع، فكانوا أشدَّ منهم، وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض؛ لِعظَم أجرامهم"[3].

معنَى حرف (مِنْ) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾:

بيانُ كثرةِ أعدادِهم دليلٌ على صدق المقارنة بين ماضٍ وحاضر

(مِنْ) في قوله: ﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ بيانيَّة، أي: أكثرَ عدَدًا بأضعافٍ مُضاعفةٍ من مشركي قريشٍ والعرب، ولا سيَّما قومَ نوحٍ عليه السلام، وقوم هودٍ وصالحٍ عليهما السلام بنحت البيوت في الجبال، وبقوَّة أبدانهم، وعِظَم عقولهم واحْتيالهم، وما بَنَوا من المصانع لنجاتِهم حين جاءهم أمرُنا؛ بل كانوا كأمس الذّاهب[4].

معنَى الواو في قوله: ﴿وَأَشَدَّ﴾:

الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ﴾ أثبتت للأُمَمِ السّالفةِ الأشدّيَّةَ؛ مبالغةً وتأكيدًا لمضمونِ الخبر في أنَّه لا أمرَ لأحدٍ مع أمرِه ﷻ[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 125.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 524.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 156.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 126، 127.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَشَدَّ﴾:

صيغةُ التَّفضيلِ مبالغةٌ في شدَّةِ القوَّةِ وعظمتها في أوانها

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَأَشَدَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بصيغةِ التَّفضيل، ضارَعَ المعرفةَ، في أنَّه لا تدخلُه الألفُ واللّام، فأُجريَ مجراها، فأفاد المبالغةَ في معنى القوَّةِ بإضافتِه إليها[1]، فقد "كان هؤلاء السّالفون أكثر قوَّة من قريش، وأبقى أثرًا في الأرض، وأكثرَ عددًا، فلم ينفعهم كلُّ ذلك، ولم يُغنِ عنهم شيئًا من بأس الله حينما جاءهم"[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿قُوَّةً﴾ في السّياق:

إثباتُ القوَّةِ للأممِ السّالفةِ وكثرتِها، تعبيرٌ عن المراد المستفاد

في تنكيرِ لفظ ﴿قُوَّةً﴾ إثباتُ القوَّةِ وكثرتِها في المُكْنة بالمالِ والرِّجالِ والأبدانِ والسِّلاح، ولكنَّها لم تُغْنِ عنهم لمّا كفروا بمَن وهبَهم هذه القوَّة، وخالفوا رُسُلَه، وكذَّبوهم، وقابلوهم بالإيذاء الشَّديد، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصّلت: 15][3].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (القوَّة):

بيانٌ ملمح المبالغة في إثباتِ قوَّتِهم، وتأكيدِ أخذِهم بأمرِ الله

في ذِكْرِ لفظِ القوَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ كنايةٌ عن المبالغة، وذِكْرُها مضمومةً إلى الشِّدَّةِ تأكيدٌ لمضمونِ الخبر، في إعطائهم تلك القوَّة، وفي تأكيدِ أمرٍ آخر، وهو أنَّه لا أمرَ لأحدٍ مهما بلغَ من القوَّةِ، مع أمرِ اللهِ ﷻ[4].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَءَاثَارًا﴾:

المبالغةُ في أنَّ آثارَهم الدّالَّةَ على قوَّتِهم، لم تُغْنِ عنهم شيئًا

جاءتِ الواوُ العاطفةُ في قوله تعالى: ﴿وَءَاثَارًا﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ وجودِ آثارٍ ظاهرةٍ في الأرضِ، للنَّظرِ بأعْيُنِ الاعتبارِ في الآثارِ، من المساكنِ والدّيار، لمن مضَى من الأشرار، ولمّا أخبر عن كثرتهم

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 12/ 315.
(2) حومد، أيسر التّفاسير: 4094.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 126.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 126.

وقوَّتهم وآثارهم الدّالَّةِ على مُكْنَتِهم؛ سبَّبَ عنه شرحَ حالِهم، الَّذي أدَّى إلى هلاكِهم واغتيالهم[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿وَءَاثَارًا﴾:

وجودُ آثارِ القومِ بكثرةٍ ومُكْنة، دليل على البأس والقوَّة

جاءَ تنكيرُ لفظ ﴿وَءَاثَارًا﴾؛ بيانًا لوجودِ هذه الآثارِ بكَثرة، ودليلًا واضحًا على مُكْنتهم، وأنَّها لم تكنْ لتكون؛ لولا ما أعطاهمُ اللّهُ من أسبابٍ وأدواتٍ ومعارفَ مكَّنَتْهم من إقامةِ تلك الدّورِ والمصانع[2].

فائدةُ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الآثارُ القائمةُ في أرضِ الأممِ السّالفةِ، شاهدةٌ على ما أصابَهم

لَمّا كانت آثارُهم مَرئيَّةً، بنحتِ البيوتِ في الجبالِ، وبناءِ المصانعِ والقِلاعِ والمدائن الحصينة، وكلُّ ذلك في أرضِهم الَّتي كانوا يعيشون عليها، وهي معروفةٌ لقريشٍ والعرب؛ عبَّر عن ذلك كلِّه بقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الأرضُ المعهودةُ لأقوامِ السّابقين أثرٌ لما شهدته حضارتهم

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد، أي: الأرضِ الَّتي أنتم تعرفونَ مكانَها، وتسافرونَ إليها، وتَرَوْنَها، وآثار القومِ فيها باديةٌ ظاهرة، قوله: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كانوا أظهر منهم في العمران والحضارة والغنى[4]، والآثارُ الباقية دالَّةٌ على التَّفوُّق والقوَّة.

موقعُ (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾:

نفيُ الإغناءِ أو الاستفهامُ عنه مفيدٌ في الدَّلالة عن المراد

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ نافيةٌ شرطيَّة، أو استفهاميَّةٌ في معنى النَّفي، منصوبةٌ بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾[5]، أي: "حين جاءهم أمرُ الله، فلم تغنِ عنهم قوَّتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصَّنوا بحصونهم"[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 659.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 315.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 12/ 316.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 276.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 743.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ في السّياق:

كـثرةُ النِّـعَـمِ لا تـدفـعُ عـنِ الكافرين النِّقَم

﴿أَغۡنَىٰ﴾ مشتقٌّ من الفعل (غَنيَ)، يقالُ: غَنَيْتُ بكذا غِنْيانًا وغِناءً، واستَغنيْتُ وتَغَنَّيْتُ، وتَغانَيْتُ، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾ [التَّغابن: 6]، وأغناني كذا، وأغنَى عنه كذا: كفاه، قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨﴾ [الحاقَّة: 28]، وغَنَى في مكانِ كذا؛ إذا طالَ مقامُه فيه مُسْتغنيًا به عن غيرِه بغنًى، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۗ﴾ [الأعراف: 92][1]، و﴿أَغۡنَىٰ﴾ صيغةُ تفضيل[2]، وهي هنا في سياقِ النَّفي في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، يعني: (أيّ شيءٍ أغْنَى عنهم مَكسوبُهم أو كَسْبُهم)[3]، أي: لم يُغْنِ عنهم، فلم تنفعْهم، أو تكفِهم كثرةُ أعدادِهم وأموالِهم وقوَّتِهم من شيءٍ؛ لمّا كفروا بآياتِ اللّه، وحادّوا اللّهَ ورُسُلَه[4].

نُكْتَةُ تعديةِ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ بالحرف (عن):

عـدمُ نفعِ القوَّةِ مع عـذابِ الله، دليلٌ على مطلق قدرة الله

لمّا أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن كثرةِ السّالفينَ الكافرين، وقوَّتِهم وآثارِهم الدّالةِ على مُكْنتهم؛ سبَّبَ عنه شرحُ حالِهم الَّذي أدَّى إلى هلاكِهم واغتيالِهم، فقال معبِّرًا عن عدمِ كفايةِ ذلك كلِّه في ردِّ عذابِ اللّه، وأمرِ اللّه لجنودِه في الأرضِ والسَّماء بأخذِهم واستئصالِ شأفتِهم، بتعدية ﴿أَغۡنَىٰ﴾ بـ (عن) المفيدة للمجاوزة الحقيقية[5]، دون غيرِها من الحروف الَّتي لا تُحيطُ بذلك المعنَى العميقِ والمشهدِ الدَّقيق[6].

دلالة الأداة الموصولة ﴿مَّا﴾ وصلتها:

مـا أغْـنَـى عـنِ الـكـافـريـن كسبُهم الَّـذي حازوه

﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، موصولةٌ بمعنَى

(1) الرّاغب، المفردات: (غنى).
(2) الأشمونيّ، شرح ألفيَّة ابن مالك: 2/ 300.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(5) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.

(الَّذي) في محلِّ رفع فاعل[1]، أي: الَّذي كانوا يكسبون، أو مصدريَّةٌ مرفوعة، يعني: (أيّ شيءٍ أغنَى عنهم مكسوبُهم أو كسْبُهم)[2]، وجملةُ ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ صلةُ الموصول، لا محلَّ لها من الإعراب.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ الفعل ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

جلبُ المنفعةِ مع الكفرِ جلبٌ للمضرَّة الأكيدة

الكَسْبُ: تحرّي ما فيه جلبُ نفعٍ وتحصيلُ حظٍّ، وقد يكونُ ما يظنُّه الإنسانُ منفعة، فإذا به مضرَّة[3]، وهكذا كان حالُ الأُمم السّالفة، فقد كانوا مستمرّين على إعمارِ دنياهم بإشادةِ البُنيانِ، والتَّعالي بقوَّتِهم، وعدمِ الإيمان بدعوةِ رُسُلِهم لعبادة الأحدِ الدَّيّان، فأهلَكهمُ اللّهُ، ولم يُبقِ منهم أحدًا، ومُفادُ ذلك أنَّه "كان مَن قبلهم أكثرَ منهم عددًا، وأشدَّ منهم قوَّةً وآثارًا في الأرض، فما دفع عنهم عذابَ اللّه ما كسبوه من مال أو قوَّة أو سلطان"[4].

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ الكَسْب:

حـذْفُ المتأخِّرِ لدلالةِ المتقدِّمِ عليه مفيدٌ في البيان المراد

حُذِفَ مفعولُ الكَسْبِ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه، أي: ما كانوا يكسبونَ من كثرتِهم وقوَّتِهم وآثارِهمُ الدّالَّةِ على مُكْنتِهم، والَّذي أدَّى إلى هلاكِهم واغتيالِهم[5]، أي: إنَّ هؤلاءِ الغابرين، عند ما حلَّ بهم عذابُنا، لم تُغْنِ عنهم شيئًا كثرتُهم أو قوَّتُهم أو أموالُهم، بل أخذناهم أخْذَ عزيز مقتدر في زمنٍ يسيرٍ[6].

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ مع الآية (21) من هذه السّورة:

إنكارٌ وتوبيخٌ لمن يرى دلائلَ إهلاكِ المُكذِّبينَ فلا يعتبر

في هذه الآية تشابهٌ لفظيٌّ شديدُ الصِّلةِ، في بعضِ الجوانب مع الآية (21) من نفس السّورة، في قوله تعالى: ﴿*أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ

(1) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 182.
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب: 704.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 316.

مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ [غافر: 21]، وهذا التَّشابهُ في أمور عديدة، **أوَّلُها:** أنَّ السَّيْرَ المستفهَمَ عنه في الآيتَيْن هو سيرٌ تحصُلُ فيه آياتٌ ودلائلُ على وجودِ اللهِ ووحدانيَّته، وفيها تذكيرٌ بعبرةِ آثارِ الأُممِ الَّتي استأصلَها اللهُ تعالى لمّا كذَّبتْ رُسُلَه، وجحدَتْ آياتِه ونِعَمَه. **ثانيها:** تكريرُ الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿*أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [غافر: 21]، وهو إنكارٌ محمَّلٌ ممزوج بالتَّقريع والتَّوبيخ. **ثالثُها:** جاءَ الانتقالُ عَقِبَ آياتِ الإنذارِ والتَّهديد، وكان الانتقالُ هنا عقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلال، وفي كلا الانتقالَيْن تذكيرٌ وتهديدٌ ووعيد، وهو يشيرُ في كلا الحالَيْن إلى أنَّهم إنْ لم يكونوا ممَّن تَزَعُمُهُمُ النِّعمُ عن كُفرانِ مُسْديها، كشأنِ أهلِ النُّفوسِ الكريمة؛ فليكونوا ممَّن يَردَعُهمُ الخوفُ من البَطْشِ، كشأنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمة، فَلْيضَعوا أنفُسَهم حيثُ يختارون من إحدى الخُطَّتَيْن. **رابعُها:** في كلتا الآيتَيْن بيانٌ لما ارتكزَ عليه الكفّارُ والمكذِّبونَ لدعوةِ الرُّسُلِ من كثرتِهم وشدَّةِ مُكْنتهم، وحَذاقتِهم في إشادةِ أبنيتِهم، ممّا تشهدُ له آثارُهم؛ ليكونَ عِبرةً وعظةً لمن بعدَهم، حيث لم يُغْنِ عنهم ذلك في ردِّ عذابِ اللهِ، حينما نزلَ بساحتِهم. **خامسُها:** جاء العطفُ في الآيةِ الثّانية مخالفًا للآية (21)؛ إذ العطفُ في جملة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ بالفاءِ للتَّفريع، لوقوعِها بعد ما يصلُحُ لأن يُفرَّعَ عنه إنكارُ عدمِ النَّظرِ في عاقبةِ الَّذين من قبلِهم بخلافِ نظيرِها، فقد وقعَ بعد إنذارِهم بيومِ الآزفة[1].

دلالة الأداة (لَمّا) في السّياق المُحكم:

في (لَمّا) معنَى التَّوقيت، وقد أفادتْ معنَى: أنَّ اللهَ لم يُغيِّر ما بهم من النِّعَمِ العُظْمَى، حتَّى كذَّبوا رُسُلَه، فاستحقُّوا عقابَ الإهلاكِ والاستئصال[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

لَمّا كانتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الآية، مفرَّعةً على جملة: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ الآية، الَّتي أخبرَتْ أنَّ كثرتَهم وقوَّتَهم وآثارَهم الدّالَّةَ على مُكْنتهم سبَّبتْ عنه شرحَ حالِهم في تكذيبِ رُسُلِهم، الَّذي أدَّى إلى هلاكِهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 219، 220.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 220.

لَمّا اغترَّ المكذِّبونَ بقوَّتِهم، فكذَّبوا رُسُلَهم؛ أهلكَهُم الله

واغتيالِهم؛ جاء جوابُ (لَمّا) الشَّرطيَّة، مبيِّنًا أنَّ الَّذين أرسَلْناهم إليهم - وهم منهم - يعرفون صِدقَهم وأمانتَهم بالبيِّناتِ الدّالَّةِ على صِدقِهم - لا محالة - فرحوا، أي: القومُ الموصوفون بما عندهم من العلمِ من نحتِ البيوتِ في الجبال، وجَرِّ الأثقال، وهندسةِ الأبنية، وإرصادِ الكواكبِ لأجلِ معرفةِ أحوالِ المعاش، وغيرِ ذلك من ظواهرِ العلومِ المؤدّيةِ إلى التَّفاخرِ والتَّعاظمِ والتَّكاثر، وقوفًا مع الوهمِ من علمِ ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا، وقناعةً بالفاني، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الرّوم: 7]، وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزُّمر: 49]، وكان ذلك كلُّه مع استهزائهم بالرُّسُلِ ودعوتِهم سببًا في هلاكِهم واستئصالهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيء في السّياق:

حكمةُ الله أن يكون الرُّسُلُ مُصطَفَينَ من اللهِ من نفسِ أُمَمِهم

دلَّ فعلُ المجيء في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ على أنَّ الرُّسلَ كانت تأتي من بين ظهرانيهم، بأمرِ اللهِ واصطفائه لهم، فهُم منهم، ويعرفونَهم بأشخاصِهم، ويعرفون صِدقَهم وأمانتَهم، كما في قولِه تعالى: ﴿*وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: 21]، وقولِه تعالى: ﴿*وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: 61]، وقولِه تعالى: ﴿*وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: 84][2].

نُكْتَةُ إضافةِ الرُّسُلِ إلى الضَّميرِ (هم):

الرُّسُلُ من أقوامِهم بمكانٍ، خُلقًا وشرفًا وأمانةً

إضافةُ الرُّسُلِ إلى ضميرِهم، في قولِه تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الَّذين أرسلْناهم إليهم، هم يعرفونَ صِدقَهم - لا محالة - وفي ذلك إقامةُ الحُجَّةِ عليهم؛ إذ كيف يُكذِّبون من كانوا على يقينٍ من صِدقِه؟[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128، 129.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.

معنَى الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

يجيء الرُّسُلُ ومعهمُ المعجزات؛ لإبلاغ المخاطَبين بالآيات

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للمصاحبةِ[1]، أو للملابسة[2]، أي: جاءَتهم رسُلُهم مُصْطحِبينَ معهم البيِّناتِ، مؤيَّدين بها من اللهِ تعالى، أي: المعجزاتِ الواضحةِ الدّالَّةِ على صِدقِهم وأمانتِهم[3]، "من الكتب الإلهيَّة، والخوارق العظيمة، والعلم النّافع المبين للهدى من الضَّلال، والحقِّ من الباطل"[4].

دلالة (أل) في لفظ (البيِّنات):

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: (البيِّناتِ) للعَهد، أي: البيِّنات الَّتي عُهِدَ تأييدُ الأنبياء والرُّسُلِ بها، ممّا وردَ ذكرُها في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ.

دلالة شبه الجملة: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

كون الجملة حالًا أو صفةً مبين في دلالته عن المُراد

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، متعلِّقانِ بالفعلِ ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾، وهي في محلِّ نصب حال، أي: جاءَتهم رسُلُهم حالَ كونِهم مؤيَّدينَ أو مصحوبينَ بالمعجزات[5]، ويمكنُ أن تكونَ صفةً لموصوفٍ محذوف، تقديرُه: بالآياتِ البيِّنات.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ بالفرح:

بيان حال ازدهاء المكذِّبينَ، بإعراضِهم عن دعوةِ الرُّسُل الأكرمين

الفَرحُ في قولِه تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ مُكنًّى به عن آثارِه، وهي الازدهاء[6]، أي: أظهروا الفرحَ بذلك، وهو ما لهم من العقائدِ الزّائغةِ والشُّبهِ الدّاحضة[7]، فهو كناية عن تمسُّكِهم بما هم عليه، فالمعنَى: أنَّهم جادلوا الرُّسُلَ، وكابَروا الأدلَّةَ، وأعرضوا

(1) ابن عثيمين، شرح ألفيَّة ابن مالك: 6/ 41.
(2) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 743.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 525.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 287.

عنِ النَّظر، وما عندهم من العلم هو معتقداتهم الموروثة عن أهل الضَّلالة من أسلافهم[1].

بلاغةُ فنِّ التَّهكُّم في السّياق المحكم:

في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ الآية، فنُّ التَّهكُّم، وهو في اصطلاح البيانيّين: الاستهزاء والسُّخرية من المتكبِّرين؛ لمخاطَبتهم بلفظ الإجلال في موضع التَّحقير، والبشارة في موضع التَّحذير، والوعد في موضع الوعيد، والعلم في موضع الجهل؛ تهاونًا من القائل بالمقول له واستهزاءً به[2]، قال الزَّمخشريُّ: "أراد العِلْم الوارد على طريق التَّهكُّم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [النَّمل: 66]، وعلمهم في الآخرة أنَّهم كانوا يقولون: (لا نُبعث، ولا نُعذَّب)، وكانوا يفرحون بذلك، ويدفعون به البيِّنات، وعلمَ الأنبياء"[3].

المخاطَبة بلفظ الإجلال في موضع التَّحقير، هو غاية الاستهزاء والازدراء

معنَى الباء في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ للسَّببيَّة، أي: فرحوا بسببِ ما عندَهم من العلمِ بمعتقداتِهمُ الموروثةِ عن أهلِ الضَّلالةِ من أسلافِهم[4]، والمقصود هنا "فَرِحوا بِما عِندَهُم مِنَ العِلْمِ، أي: الخالي عن نور الهداية والوحي، ورَضوا بها عن قبول هداية الرُّسل ومعارفهم، واستهزؤوا برسلهم؛ لاستصغارهم بما جاؤوا به، في جنب ما عندهم من العلم الوهميِّ"[5].

فَرَحُ الضّالّينَ بسبب ما ورثوه من معتقداتٍ باطلة دليلٌ على سفههم

معنَى (ما) وموقعُ الجملة بعدها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنَى

بيانُ أنَّ جملة الصِّلة مزيلةٌ للإبهام، مبينةٌ عن المراد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 526.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 182.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 24/ 221.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 322.

(الَّذي)، تُفيدُ المبالغةَ في وصفِ ما انطوتْ عليه نفوسُهم من الكِبر؛ إذ اعتقدوا أنَّ ما يقومون به من أعمالِ البناء واتِّخاذ المصانع، وما امتلكوه من قوَّةٍ إنَّما هو العلمُ الحقيقيُّ، وليس لهم في حياتِهم من غرضٍ إلّا التَّفاخرُ والتَّعالي بما هم عليه، دونَ إسنادِه إلى اللّهِ المنعِم عليهم بذلك كلِّه، والجملةُ بعدَه صلةُ الموصولِ، لا محلَّ لها من الإعراب[1].

فائدةُ الظَّرفيَّة بشبه الجملة ﴿عِندَهُم﴾:

أفادتِ الظَّرفيَّةُ في قوله تعالى: ﴿عِندَهُم﴾ مُلكيَّةَ ما ورثوه عمَّنْ سبقهم في الكفر من معتقداتٍ باطلةٍ ساروا على نَهْجِها فرحين[2]، أو ما حازوه من هندسة الأبنية، وإنباطِ المياهِ، وجَرِّ الأثقالِ، ومعرفةِ الأقاليم، وإرصادِ الكواكبِ، لأجلِ معرفةِ أحوالِ المعاش[3].

العلمُ القائمُ على الكفرِ أو التَّفاخرِ هالكٌ أصحابُه لا محالة

معنَى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بمعنَى بَدَل، أي: بما عندهم من الدُّنيا بدَل العِلْم[4]، ويجوزُ أن تكون للتَّبيين، أي: ما هم عليه من مهارةِ البناءِ والقوَّةِ وغيرِ ذلك هو العلمُ.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ للعهد، أي: ما عهدوه من علمٍ نقلوه، أو توارثوه عنِ الأُممِ السّابقة، وهو العلمُ القائمُ على الكفرِ والضَّلال، أو أنَّ المراد به العلمُ الَّذي أثَرَوا به تلكَ الآثارَ الدّالَّةَ على مُكْنتهم وشِدَّةِ قوَّتِهم، في نحتِهم من الجبال بيوتًا لهم، واتِّخاذِهمُ المصانعَ، وغيرِ ذلك من ظواهرِ العلوم المؤدّيةِ إلى التَّفاخُرِ والتَّعاظُمِ والتَّكاثر، وقوفًا مع الوهم، وإنكارًا للعلم الحقيقيِّ، والإيمانِ باللّهِ والبعثِ بعد الموت، فآثروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقية[5].

العلمُ عندهم علمُ الضَّلالِ الَّذي عهدوه عمَّن قبلَهم

(1) الخرّاط، المجتبى: 3/ 1115.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 127.
(4) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 503.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128.

نُكْتَةُ إسنادِ العِلْمِ لهم وفَرَحِهم به:

التَّهكُّمُ بهم في إثباتِ جهلِهم، من البيان المفصح عن الدَّلالة

في ظاهرِ قوله تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، إيهامٌ بأنَّهم أهلُ علم، وأنَّهم فرحونَ بما عندهم منه، وليس الأمر كذلك، إنَّما هو أسلوبُ القرآنِ الكريمِ هنا في التَّهكُّمِ بهم، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [النَّمل: 66]، وعلمُهم في الآخرةِ أنَّهم كانوا يقولون: لا نُبعَثُ، ولا نُعذَّب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصّلت: 50]، وكانوا يفرحون بذلك، ويدفعون به البيِّناتِ وعلمَ الأنبياء، كما قال ﷻ: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الرّوم: 32]، ويجوزُ أن يوضعَ قولُه: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ – ولا علمَ عندهمُ البتَّةَ – موضعَ قوله: (لم يفرحوا بما جاءهم من العلم)؛ مبالغةً في نَفْيِ فرحِهم بالوحيِ الموجبِ لأقْصَى الفرحِ والمسرَّةِ، مع تهكُّمٍ بفرْطِ جهلِهم، وخلوِّهم من العلماء[1].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ عاطفة، للمبالغةِ في إحاطةِ العذابِ بهم على وجهِ الشِّدَّة، أي: أتيناهم بما أزالَ فرحَهم، وأطَلْنا غمَّهم وترَحَهم، وأحطْنا العذابَ بهم، فلا مفرَّ لهم[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ (حاقَ) في السّياق:

تحقُّقُ إحاطةِ العذابِ بالمكذِّبين دونَ مَفَرٍّ لهم من الحال المهين

حاقَ بهم: أحاط، يقال: حاقَ يَحيقُ حَيْقًا؛ إذا أحاط، وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: نزلَ العذابُ مُحيطًا بهم إحاطةَ السِّوارِ بالمِعْصَم، لا مَفرَّ لهم منه، وجاءتْ صيغةُ الماضي في الفعلِ (حاقَ)؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ إحاطةِ العذابِ بهم، وإصابتِه لهم دون خروجِهم منه[3].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 439.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128.
(3) الرّاغب، المفردات: (حاق)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ مستعارٌ للشِّدَّةِ الَّتي لا تَنْفيسَ بها؛ لأنَّ المحيطَ بشيءٍ لا يدعُ له مَفْرَجًا[1]، ذلك أنَّهم "لم يلتفتوا إلى الرُّسل، ولم يأخذوا بما أتَوْهم به، واستَغنَوا عمّا جاءهم به الرُّسلُ، بما عندهم من العقائد الزّائفة، والشُّبه الدّاحضة، وهم يظنّونها عِلْمًا نافعًا، ففرحوا بها، فنزل بهم عذابُ اللّه، وأحاط بهم من كلِّ جانب، وهذا العذاب هو ما كانوا يسخرون منه، ويستهزِئون به"[2].

شدَّةُ تكذيبِهم، لـم تـدَعْ لهم مـخـرجًـا من الحال المـأزوم، والمصير المحتوم

دلالة (الباء) في قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِهِم﴾ للإلصاق الحقيقي[3]، أي: حاقَ بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائهم[4]، أو حاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَسْتَهزِئونَ من الجزاءِ والعقابِ[5].

نُكْتَةُ تعديةِ (حاقَ) بالباء:

عدَّى النَّظمُ الكريمُ الفعلَ (حاقَ) بالباء في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ لملابسةِ إحاطةِ العذابِ على وجهِ الشِّدَّةِ بأشخاصِهم وأجسادِهم، فلم يغادرْهم حتَّى استأصلَهم، فأصبحوا أثَرًا بعد عَيْن، هم وما كانوا يتفاخرونَ به من مصانعِهم وأبنيتِهم ومُكْنتهم[6].

ملابسةُ العذابِ للأُممِ حتَّى تمامِ إهلاكِهم، قدرٌ لا مَفرَّ منه

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِهِم﴾:

تقدُّمُ شِبْهِ الجملةِ ﴿بِهِم﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى وجهِ الشِّدَّةِ في العذابِ الَّذي أحاطَ بهم، وعظَمةِ الأَخْذِ الَّذي استأصلَ شأفتَهم[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(2) حومد، أيسر التفاسير، ص: 4095.
(3) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 440.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 30.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 128.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 128.

دلالةُ ﴿مَّا﴾، وأثرُ موقعِ الجملة بعدَها:

المبالغةُ في شدَّةِ عذابِ المستهزئين، مفيدٌ لبيان المراد

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ اسْمُ الموصول، وهو فاعلُ الفعل (حاقَ)؛ وذلك للمبالغة في بيانِ شدَّةِ ما أحاط بهم من العذابِ جزاءَ استهزائهم[1]، والجملةُ بعده صلةُ الموصولِ لامحلَّ لها مِن الإعراب[2].

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكَون ﴿كَانُواْ﴾:

في دخولِ فعلِ الكَون في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الاستهزاءَ بوعيدِ الرُّسُلِ كان طبيعة وديدنًا لهم، واسْتدراجًا لإيقاعِ العذابِ بهم والاسْتئصال[3].

دلالة حرف الباء في ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

توَعُّدُهم بسببِ استهزائهم تأكيدٌ لسوء عاقبتِهم

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاق المعنويِّ[4]، أي: حاق بهم العذابُ الذي كانوا به يستهزئون؛ لأنَّهم كانوا في الدُّنيا يستهزئون؛ إذا خوِّفوا بعذاب اللّه، ويقولون: متى هذا الوعد؟[5] أو: حلَّ، ونزل، وأصابهم ما كانوا يستهزئون به ممّا جاءتهم به رسلُهم[6].

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

خطورةُ استهزاءِ الأُممِ بالحقِّ اليقين، جعلَ ما دونه كالعدَم

لَمّا كان استهزاؤهم بالحقِّ عظيمًا جدًّا؛ عدَّ استهزاءهم بغيره عَدَمًا، وأشارَ إلى ذلك بتقديم الجارِّ والمجرور؛ لإفادة الحصر، فقال: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[7].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

هَزَأ وهزِئَ يَهْزَأُ هُزْءًا وهُزُؤًا واستهزأ: سَخِرَ، والهُزءُ: السُّخرية،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 17/ 128.
(2) درويش، إعراب القرآن: 8/ 525.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 221.
(4) قباوة، المفصل، ص: 1684.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 223.
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: 1/ 475.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 128.

والاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزْء[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ الأُمَمَ كانت تسخرُ من رُسُلِ اللهِ في دعوتِهم إلى عبادةِ اللهِ وحده، والتزامِ شريعتِه تعالى، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي: نزل بهم عقوبةُ استخفافهم بالحقِّ، وتعظيمهم واغتباطهم بالباطل[2]، والإتيانُ بالفعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مضارعً لإفادة تكرار استهزائهم.

تكرارُ سُخريةِ الأُمَمِ من رُسُلِها، تأكيدٌ لاستفحال الظّاهرة

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الفَرَحُ والمَرَح والسُّرور والحُبور:

الفَرَحُ: انشراحُ الصَّدرِ بلذَّةٍ عاجلة، وأكثرُ ما يكونُ ذلك في اللَّذّاتِ البدنيَّةِ الدُّنيويَّة، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: 23]، والفَرَحُ قد يكون بحقٍّ، فيُحمَدُ عليه.

المَرَحُ شدَّةُ الفرحِ، ولا يكون إلّا بالباطل، والسُّرورُ فَرَحٌ بنَفع، والحُبورُ أشَدُّه

والمَرَحُ: شدَّةُ الفرحِ والتَّوسُّعُ فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37][3]، والمَرحُ لا يكونُ إلّا بالباطل، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: 75]؛ إذ قيَّد الأوَّل، وأطلقَ الثّاني.

والسُّرور: ما ينكتِمُ من الفرح، قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: 11]، وقال في أهلِ النّار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: 13] تنبيهٌ على أنَّ سرورَ الآخرةِ يُضادُّ سرورَ الدُّنيا، والسُّرورُ لا يكونُ إلّا بما هو نفعٌ أو لذَّةٌ على الحقيقة، وقد يكونُ الفرحُ بما ليس بنفعٍ ولا لذَّةٍ، كفرح الصَّبيِّ بما يُتعبُه، ويُؤذيه، ولا يُسمَّى ذلك سرورًا، ونقيضُ السُّرورِ الحُزْنُ الَّذي يكون بالمَرازي، ونقيضُ الفرحِ الغمُّ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (هزأ).
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 157.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 492، 493، والرّاغب، المفردات: (فرح) و(مرح).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 277، والرّاغب، المفردات: (سرر).

والحُبور من الحِبْر: وهو الأثَرُ المُستَحْسن، ويعبَّرُ به عن لونِ الإنسانِ وهيئته، ويُطلَقُ على الجمالِ والبهاءِ وأثَرِ النِّعمة، والحُبورُ: السُّرورُ الَّذي يظهرُ في الوجه أثرُه، وحَبَرَهُ يَحْبُرُهُ: سرَّهُ يَسُرُّه، ويقال: حَبْرَةً بالفتح، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الرّوم: 15]، أي: يُسَرّون، ويُنعَّمون، ويُكرَمون، ويفرحونَ حتَّى يظهرَ عليهم حِبارُ نعيمهم، أي: أثرُ نعيمِهم، والحُبورُ: أشدُّ السُّرور، ولذا خاطبَ اللّهُ سبحانه أهلَ الجنَّةِ بقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزُّخرف: 70][1].

الكَسْبُ والكَدْح والعَمل والفعل والصُّنع:

الكسْبُ: الفعلُ العائدُ على فاعلِه بنفعٍ أو ضرٍّ، أو هو ما وقعَ بمِراسٍ وعِلاج، أو هو ما فُعِلَ بجارحة.

الكَدْحُ أخصُّ من الكَسْب، والصُّنعُ أخصُّ من الفعلِ والعمل، والفعلُ أعمُّ، والعملُ أوسطُهما

والكَدْحُ: الكَسْبُ المُؤثِّرُ في الخِلال، قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: 6]، وفلانٌ يكدحُ لدُنياه، ويَكدحُ لآخرته، أي: يجتهدُ لذلك[2].

والعملُ: كلُّ فعلٍ يكونُ من الحيوانِ بقصد، فهو أخصُّ من الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصد، وقد يُنسبُ إلى الجمادات، والعملُ قلَّما يُنسَب إلى ذلك، والعملُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 277]، وقال سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 123]، وأصلُ العملِ في اللُّغة: الدَّؤوب[3].

والفعلُ: التَّأثيرُ من جهةِ مؤثِّرٍ يكونُ عن سبب، وهو عامٌّ لما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادة، ولما كان بعلمٍ أو غيرِ علم، وقصدٍ أو غيرِ قصد، ولما كانَ من الإنسانِ والحيوانِ والجمادات.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 277، والرّاغب، المفردات، والزّازي، مختار الصّحاح: (حبر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 449، 453، والرّاغب، المفردات: (كسب) و(كدح).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 377، والرّاغب، المفردات: (عمل).

والصَّنعُ أخصُّ من العملِ والفعل، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 197][1]، والصُّنعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنعٍ فِعل، وليس كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسَب إلى الحيواناتِ والجمادات، كما يُنسَبُ إليها الفعلُ، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: 88]، وقال سبحانه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38]، والصُّنعُ: ترتيبُ العملِ وإحكامُه على ما تقدَّمَ العِلْمُ به، وبما يوصِلُ إلى المرادِ منه، ولذلك قيلَ للنَّجّارِ: صانع، ولا يقالُ للتّاجرِ: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجّار قد سبقَ علمُه بما يريدُ عملَه من سريرٍ أو باب، وبالأسبابِ الَّتي توصِلُ إلى المرادِ من ذلك، والصُّنعُ مضمَّنٌ بالجَوْدَة، ولهذا يقال: ثوبٌ صَنيع، وفلانٌ صنيعةُ فلانٍ؛ إذا استخصَّه على غيرِه، وصنعَ اللّهُ لفلان، أي: أحسَن إليه، وكلُّ ذلك كالفعلِ الجيِّد[2].

والصُّنعُ يكونُ بلا فكرٍ؛ لشرفِ فاعلِه، والفعلُ يكون بلا فكرٍ لنقصِ فاعله، والعملُ لا يكونُ إلّا بفكرٍ لتوسُّطِ فاعلِه، فالصُّنعُ أخصُّ المعاني الثَّلاثة، والفعلُ أعمُّها، والعملُ أوسطُها، فكلُّ صُنعٍ عمل، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعل، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[3].

(أحاطَ) و(حاق):

أحـــاطَ أعـــمُّ مـن حـــاقَ، وفي (حاقَ) خصوصُ النُّزولِ والإصابة

حَوَطَ يَحوطُ حَوْطًا، والحَوْطُ من حاطَه حَوطًا، والحَوْطُ: شيءٌ مستديرٌ تُعلِّقُهُ المرأةُ على جبينِها من فضَّة، والحائطُ: الجدارُ الَّذي يَحوطُ بالمكان، والإحاطةُ تقالُ على وجهَيْن، أحدهما: في الأجسام، نحو: أحَطْتُ بمكان كذا، أو تُستعملُ في الحفظِ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ [فصّلت: 54]، أي: حافظٌ له من جميعِ جهاته، وتُستعمَلُ في المَنعِ نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلّا أن تُمنَعوا،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 80، والرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 321، 322، والرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 322، 323.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: 81] هو من بابِ الاستعارة، والحوْقُ يقرُب من الحَوْط[1]. والثّاني: في العلم، نحو قولِه تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ١٢﴾ [الطّلاق: 12]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾ [آل عمران: 120]، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: 84][2].

وحاقَ به الشَّيءُ: أحاطَ به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، أي: لا ينزلُ، ولا يُصيب[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط) و(حوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط)، والرّاغب، المفردات: (حيط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوق)، والرّاغب، المفردات: (حاق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"